

جسر القمر

"الماءُ زمانٌ فِضِيٌّ وِعباداتٌ مَثروكُه
يَنكأثرُ فيها آلهةٌ تُعسأءُ
الأسودُ لونُ الصَيِّفِ المُعلَنُ
ألبوقُ يُصرِّخُ فوقَ مَصَبَّاتِ الأنهارِ"
منصور الرحباني

مهرجانات بعلبك الدولية ١٩٦٢ – ومسرح معرض دمشق الدولي ١٩٦٢

....

ضيعة "القاطع" تجاور الجسر، وطالما تعايش أهاليها مع أهل الجسر وبادلوهم الأمنيات وشاركوهم مسراتهم وأفراحهم وأعيادهم في جو من الإلفة وحسن الجوار. وكم من حالة تَوَجُّج الأهالي في القريتين قربتهم بمصاهرة دافئة وحَدَّت المشاعر والأمانى الصادقة والأسر أيضاً.

والمياه التي كانت تغذي أراضي ومزارع الضيعتين موفرةً المواسم الجيدة للجميع مثلَّت على الدوام دعامة المودة والصدقة وكرَّست القاعدة التي يفخر بها الناس في مثل هذه الضيعة والتي تعبر عنها جملة بسيطة (مياهنا واحدة) أو (نحن نشرب من نفس النبع). ولكن الأرض لا تزدهر بالمياه وحدها.. سواعد الفلاحين هي العنصر الأول في صنع الخير وتحقيق الرفاهية. كان أهل القاطع الذين تصلهم المياه من شرق الجسر نشيطين مليئين بالحياة جادين في زرع الأرض ورعايتها وجني محاصيلها فتألقت حياة أهليها وتدفتت مواسمهم وتلونت جنائنهم.

....

في ضيعة جسر القمر حكاية تناقلها الأهالي عبر السنين.. ربما سرَّ بها إليهم في البداية أناس من بينهم أفلقتهم حالات التوتر والعداء والبغض مع جيرانهم القريبين، أهل ضيعة القاطع. وتتلخص هذه الحكاية بأن الجانِّ وملوكهم يختبئون تحت الجسر ولا يظهرون إلا للنائمين عند حافته وهم يحرسون كنزاً لا يعرف مكانه أحد من الأنس. لهؤلاء الجانِّ صفات خاصة وأشكالٌ غريبة يتخيَّلها المصنِّعون إلى الحكايات أشباحاً ذات رهبة وقوة تأثير تفرض على من يراها الخشوع والخوف والالتزام بما يُطلب منه أملاً بالحصول على منحة يختار نوعها وشكلها وربما كميتها.

....

في إحدى أمسياته، بُعيد الغروب وقبل أن يضيء قمرٌ تمُوزيٌّ مكتملٌ أصفرُ سماءَ الجسر وبساتينها وحرارتها، وفي آخر دقائق لشيخ الضيعة قبل أن تقوده قدماه شرقاً باتجاه البيت وقد نال التعب منه فبدأت أجفانه بالذبول لتحول بينه وبين القدرة على تلمس طريقه، يأتيه صوتٌ مجهول المصدر يثير في نفسه الدهشة الممزوجة بفرح طفوليٍّ بريء:

الصبية: أخذني القمرُ أخذني القمرُ
بليلةَ قمرُ عَ جسر القمرُ

بهذا المشهد يبدأ الفصل الأول من المسرحية الغنائية (جسر القمر) من تأليف وتلحين الأخوين عاصي ومنصور على مسرح مدينة بعلبك الأثرية في صيف عام ١٩٦٢، بعد مقدمة موسيقية هادئة بسيطة وقصيرة تتلاءم وانبثاق زهرة الغروب الخجولة من بين ركام الأحجار على جانب نهر شحّت مياهه واختفي خريزها ليحلَّ محلّه سكونٌ مطبق يزيد المكان رهبةً والمغيب وحشةً وبروداً.

وبصوت فيروز، الذي ينتظره المشاهدون وقد تهيأت له قلوبهم وعقولهم وصاغياتهم تُعدهم بفيض من الاهتزازات أعمقها والمشاعر أنبلها تحلّق معها أرواحهم في لقاء صاحبة الإطلالة الملائكية والصوت المخملي والحضور العذب، يدرك الجمهور أنهم مدعوون إلى رحلة شيقة أخرى في عالم الإبداع الرحباني الثري الأخاذ.

تبدأ الصبية المسحورة حوارها المنعم مع مضيفها الشيخ بالتحية بالاسم:

الصبية: سَعِيدَة يَا شَيْخَ الْمَشَايخِ

ويرد الشيخ التحية مبادراً بسؤال الصبية عمّن تكون كاسراً حالة الرهبة عنده:

شيخ المشايخ: سَعِيدَة.. مِينِكْ إِنْتِ مِينِكْ؟

ويستعيد الشيخ هدوءه تماماً بعد أن يولد طلبُ الصبية إحساساً بالثقة المتبادلة:

الصبية: خَلَّصْنِي يَا شَيْخَ الْمَشَايخِ

شيخ المشايخ: قَوْلِيلِي شَوْ قَصَّتْكَ.. تَ عَيْنِكَ؟

وتعرّفنا الصبية بقصتها في سردٍ نصف غنائيٍّ يصاحبه عدد محدود من عناصر الأوركسترا بلحن ناعم هاديء تسبح نواته فوق أمواج الصوت الكنائسي الساحر لفيروز الشابة ذات السبعة وعشرين ربيعاً

الصبية: مَسْحُورَة أَنَا.. أَنَا هَالِصِيَّةُ الزَّهْرَةِ الْمَسِيحِيَّةِ

سَحْرُونِي أَنَا بَلِيلِيَّةَ قَمَرِيَّةِ

زَرَعُونِي عَ الطَّرِيقِ عَ جَسْرِ الْقَمَرِ

عَ الْمَفْرَقِ الْعَتِيقِ وَ مَا عَادَلِي خَبَرُ

....

ولكن الثقافة المبنية أصلاً على الملكية الخاصة وعلى تبرير الجشع والأنانية وتحويلهما إلى قضية (الأهالي) سعيًا لحشدهم وجرّهم إلى التضحية بالعلاقات الحميمة مع أقاربهم وجيرانهم وبالسلام والطمأنينة من أجل الحفاظ على مصالح مستغليهم، هذه الثقافة توفر الفرصة لمزيد من التوتر والتصيد، لذا نرى أصحاب تلك المصالح وذاك النفوذ حريصين على تبنيها وتنميتها ورفع درجة التعبئة من خلالها.

هاهو (صالح) الإبن البكر لمختار القاطع يصل ساحة ضيعة الجسر وعيناه تفيضان بالغيظ وفمه يجهر بعبارات التحدي والتهديد والوعيد وفراءً عنه بيده جاهزة للقتال.. بينما تلقاه إحدى فتيات الضيعة (هيفا) مستنكرة قدومه العلني وتحديه الصارخ الصريح، فيدور الديالوج الشعري الإلقائي التالي:

صالح: نحنا من أهل القاطع جينا لهالحي
بدنا نحكي ونشارغ ع سقي المي

....

بانتهاء دبكة الخيام تتخامد الموسيقى وتتخافت الإضاءة دليل انقضاء اليوم الذي يغادر الجميع عند غروبه خيام القش عاندين إلى بيوتهم في الضيعة بعد أن أمضوا نهاراً مليئاً بالعمل والمتعة والفرح. إلى الخيام القريبة من جسر الضيعة الذي يفصلها عن القاطع، تصل هيفا هائمةً تفكر، وهي تراقب الشمس الأفلة من جهة ضيعتها، بالحالة البغيضة التي يعيشها أهلها في علاقتهم بجيرانهم وأقاربهم. وفي لحظات صمتها ووحدها يصل أبو رافع العائد من أرضه فتبادره بالأسئلة عن أهل القاطع، وهو الرجل الوقور الذي عاش تاريخ الضيعة ورافق أحداثهما وخبر أهاليهما:

هيفا: عمي يا أبو رافع خبّرني عن أهل القاطع
أبو رافع: أهل القاطع

شملائن حمر كفافيهن حمر

....

نحن الآن في ساحة الضيعة وأمسية العيد التي استعد لإحيائها الفتيان والفتيات وعموم الأهالي والجميع راغبون بالفرح وآملون بالسعادة وهم يتمنون أن يستمتع بالعيد ضيوفهم الذين قبلوا الدعوة وهم قادمون من ضيعة القاطع إثباتاً لحسن النوايا وأملًا باستعادة المودة وحسن الجوار.

تمهّد الموسيقى لأولى صور العيد والناس يتقاطرون إلى الساحة بزهوّ وتباشير الفرحة تملأ الفضاء وتتألألأ بها الوجوه. اللحن الأساسي لهذه المقطوعة، والتي تشكل التحميلة التي سينسج على نغمتها لحن الأغنية التالية، يذكرنا بالـ(أليغرو) الذي يتجمع على نغماته القادمون إلى الساحة في عرس (نجلا وعبود) في مسرحية (موسم العز) المقدمة قبل سنتين، والذي رافقت ألقاناً تماثله وتجاريه روعة لوحات تجمع الناس في الساحات لإحياء الأفراح..

الشيخ مخاطباً جماعته:

ما زال بُضِيعَتِنَا العيد ولو إجا صالحٍ وانعَرَ
خَلُّنَا مَنْ بُعيدَ لَبَعيد الليلة مش رَحُ نعمل شرَّ

....

تلحّن الكمان للفارسين يدوران بحذر وتركيز وقد انحنى الجسدان قليلاً ضماناً للتمكن من تلقي الضربة المباغثة واستعداداً لتوجيهها في اللحظة المناسبة.. برهة ويأتي الجميع صوت غير متوقع لضيف عزيز.

تمهد الموسيقى الخاصة لظهور الصبية المسحورة المفاجيء الذي يبهر به الجميع فتسود الدهشة ويعم المكان سكون

الصبية المسحورة: يَمَسِّي كُنْ بِالْخَيْرِ

يَمَسِّي كُنْ بِالْخَيْرِ ماثِرْدُو الْمَسَا

والمسا لَ اللهُ يَمَسِّي كُنْ بِالْخَيْرِ

يَمَسِّي كِي بِالْخَيْرِ

الجمع:

يعدّل المتواجهان قامتيهما ويرجع كل منهما خطوتين إلى الخلف بينما يستمر الصمت وتتغير تعابير الوجوه جميعها.. لقد أضاءها القمر.. وسحر الجميع صوت فيروز الملايكي.

فيروز: الليلة يبطلع القمر والكنز يبطلع معو

وَلَمَنْ يَبْطَهَرُ الْكَنْزِ

رَحْ تَعْنِي ضِيَعُكُنْ وَتَثَلَوْنَ عِيَادُكُنْ وَيُفْرَحُو وَلَاذُكُنْ

وتطلع فيروز التي انفك سحرها للتو بموأل لكلماته الرائعة البسيطة أحلى الدلالات وأقواها.. وفيه فحوى الثقافة الاجتماعية الرحبانية وحب السلام والتعايش بين الناس بمفهومه الرحباني:

فيروز: وَكَلَّ ضِيَعَةَ بَيْنِهَا وَبَيْنَ الدَّيْنِ جِسْرَ الْقَمَرِ